كلمة في احتفالية بلوغ الكاتب سليمان فياض سن السبعين

بقلم أبو المعاطي أبو النجا

عناية الأستاذ جمال الغيطاني لنشرها نظرا في أخبار الأدب.

رسالة إلى:

أخي العزيز/ سليمان فياض

حين طلبوا مني في براءة الأطفال أن أتحدث عنك أو إليك في احتفالية بمناسبة بلوغك السبعين، لم يدركوا وقع هذا الطلب على نفسي! فقد كان من أقرب معانيه اليّ أنني على وشك أن أبلغ هذه السن ذاتها بعد عامين لاغير .

وحالي في هذا الأمر مثل حال الكثيرين الذين يظنون أن الآخرين وحدهم هم الذين يكبرون .. فما الذي يمكن أن أقوله عنك أو عني دون أن أكشف المستور أو أقع في المحظور؟!

كانت أول مفاجأة لي ولك حين تعارفنا في أيام الصبا أن اكتشفت أننا ولدنا في يوم واحد هو السابع من فبراير وأنك قد ولدت قبلي بعامين!

في تلك الأيام الخوالي، وفي مدينة الزقازيق التي كان بها المعهد الديني الأزهري الذي نتعلم فيه معاً، كان هذان العامان يعطيانك حقا معلوماً، ورصيداً كبيراً في الخبرة بالحياة والناس، ويجعلاني أقف منك موقف السائل والمنبهر بمعارفك الواسعة، وخبراتك العريضة التي تتفوق بها عليّ، ولقد كنت في حاجة الى بعض الوقت لأدرك إن اتساع عالم خبرتك لا يأتي فقط من كونك أكبر مني بهذين العامين ، بل إن هذا الفارق في الخبرة إنما جاء من فروق كثيرة بين طباعي وطباعك، فقد كنت صبياً يقبل على الحياة بلا شروط، يأخذ منها ويعطيها بلا تحفظ، كنت تملك روح الجوابة، الذي تستهويه الطرق غير المألوفة، والمناطق التي تكتنفها الظلال، وأحيانا الظلمات، والحكايات الي يُهمس بها وراء الأبواب المغلقة، ولماذا لا أقول أنك كنت بالمقاييس التي أحملها في داخلي من القرية، صبياً فاسداً من النوع الذي حذرني أهلي في قريتي من مصادقتهم، والعيش معهم، ومع أن أبوينا كانا صديقين، ويعملان بمهنة واحدة، فكلاهما كان ناظراً لمدرسة ابتدائية، وكلاهما وهب ابنه ليتعلم العلم الديني الشريف، والأخلاق الفاضلة، فقد كنت تبدو كما لو أن أهلك قد بعثوا بك الي المعهد الديني ليتخلصوا منك بقدر ماكنت أنت متخلصا منهم بطبيعة تكوينك، أما أنا فقد كنت

آنذاك أحمل في رأسي أبي وأمي وتراث قريتي بأكملها، ومع ذلك فقد وجدتني مشدوداً إليك بسلاسل من الحرير، وأعترف أنني تعلمت على يديك أول خبرة لي في التمرد علي كل ماقاله أهلي وتراث قريتي، وأظن أنني وقعت في حبك وقبل أن أقع في حب أية فتاة في المدينة، وكان أول سؤال بذهني في تلك المرحلة من العمر، كيف يمكن أن يكون هذا الإنسان الذي وقعت في أسر محبته إنسانا فاسداً. لقد تعلمت في قريتي أن أول مظاهر الفساد هي الكذب، وأنت لم تكن أبدا تعرف الكذب، ولم أكن في حاجة هذه المرة الى وقت طويل، لأدرك أنك لم تكن تقدر على الكذب، كان صدقك، جزءاً من سجيتك، ولعله كان أكثر الأجزاء سحرا في هذه السجية التي أشعر وأنا أتعامل معها بأعلى درجات الأمان والثقة والمحبة، فكيف أعتبرك فاسدا ولو كنت تقوم بتدخين السجائر، ومصادقة الطلبة المشاغبين، والمشاركة في الاضرابات التي ينظمها طلاب لايريدون للدراسة أن تنتظم، ولا للحياة أن تمضي في خط سيرها المألوف!

أظن ياصديقي أنني أسأمتك في تلك الأيام بمحاولاتي أن أجعل منك إنسانا عاقلا على طريقتي، ولكني أظن أيضا أنني لم أفعل ذلك بالطريقة التي تجعلك تفكر في التخلص مني!

وأغلب الظن أنك كنت تدرك بمكرك الجميل الذي لايتعارض مع طيبتك أنني في محاولاتي تلك لم أكن جادا جدا وأن الأمر في حقيقته لم يكن سوى نوع من التفكير بصوت عال فيما يبدو انه درجة من الاختلاف بين طبيعتي وطبيعتك، متى أدركنا معا أو منفردين جدوى أن نكون مختلفين؟ ومتى نجحنا معا أو منفردين في توظيف هذا الاختلاف لصالح صداقتنا ؟

وقد نحتاج للإجابة على هذا السؤال أن نتذاكر صديقاً ثالثا لنا معاً من أعز أصدقاء هذه المرحلة من العمر ومابعدها هو الشاعر محمد اسماعيل هاني، كانت موهبته الشعرية البازغة القوية تجعله نجم الحفلات والمناسبات التي يقيمها المعهد

الديني، ولكنه كان أشد محافظة مني، وأشد تفوقا في الدراسة مني ومنك، ولكنه كصديق كان بعيدا عنك بمقدار ماكان قريبا مني أما أنا فقد كنت في منطقة الوسط الذي كان يجعلني أحيانا أبدو في نظر كليكما شخصا بلا هوية فلا أنا واضح الفساد على طريقتك، ولا واضح الاستقامة على طريقة محمد اسماعيل هاني!

والآن ياصديقي وبعد أن أزحنا الستار عن مشهد البداية في تلك المرحلة المبكرة، الآن ونحن جميعا على مشارف السبعين ، فماذا يعني الفساد على طريقتك؟ وماذا تعني الوسطية على طريقيْ؟ وماذا تعني الاستقامة الواضحة على طريقة محمد اسماعيل هاني!

ما أكثر الأوهام التي تبددت على جنبات طريق الخبرة والتجربة والمعرفة! وماأقل الحقائق التي بقيت صَلْبة وصامدة، نلوذ بها من صعوبة الطريق أو على الأقل ندرك على نحو ما أنها هناك يمكن أن نلجأ اليها حين تهب العواصف التي لانعرف غالبا متى تهب؟ ولا من أين؟ من أجمل الأوهام التي ربطتنا في تلك السن الباكرة، وصحبتنا أشواطاً طويلة من الرحلة، وهم الاعتقاد بأننا سوف نصل وقبل أن نموت الى نوع من المعرفة بلغز الحياة والكون والمصير، نذوق بعده بَرْدَ الطمأنينة، ورَوْعَة اليقين! ووضوح معالم الطريق!

ومن الطريف ياصديقي أننا حين مضينا كل الى هذه الغاية المرجوة على طريق المعرفة، كان كل واحد فينا يمضي متأثراً بطباعه القديمة، كنت أنت تضرب في كل اتجاه بروح الجَوّابة القديم الذي لايعرف حدودا مانعة أو جامعة، تقرأ وتكتب في الأدب والتاريخ والعلم والدين والسياسة ، ولم تكن نكتة تلك التي قالها صديقنا غالب هَلسا عنك يوماً، "إنني لن أدهش لو دخل علينا يوما سليمان فياض وهو يحمل بين يديه صندوقا خشبيا صغيرا، يقول لنا أن بداخله قنبلة ذرية صغيرة ونظيفة، انتهى لتوه من صنعها، وهي يمكن أن تستعمل لتطهير الحياة الأدبية من الأدعياء والمزيفين!"

ومضيت أنا على طريقتي أقرأ وأكتب فقط ماأعتقد أنني قادر على هضمه

واستيعابه، والتمس عند أهل الاختصاص ماأظن أنهم أقدر مني على هضمه واستيعابه، أثق بهم واطمئن اليهم كما كنت أثق بك وأطمئن اليك حين تحدثني عن العوالم الخفية في مدينة الزقازيق القديمة متى أدركنا معاً أو منفردين؟ أن عمراً واحداً ولو كان سبعين عاماً لن يكون كافيا لحل اللغز الكبير؟

متى أدركنا معاً أو منفردين؟ أن تاريخ الانسانية بكل مراحله، هو محاولات أفراد أو جماعات لحل هذا اللغز؟

وأن كل تقدم في حل هذا اللغز هو تقدم في اكتشاف أن اللغز أكبر مما كان يظنه كل جيل من أجيال هذه الانسانية!

متى أدركنا معاً أو منفردين أن البشر الذين يسعون الى حل لغز الحياة والكون والمصير أصبحوا بمحاولاتهم تلك جزءا من هذا اللغز بل ربما هم أكثر أجزائه إثارة وتعقيداً؟!

متى أدركنا معا أو منفردين أننا لن نذوق أبدا برد اليقين عبر السير الطويل على طريق المعرفة؟ وأن مفهوم التقدم نفسه الذي كنا نسترشد بعلاماته ومؤشراته أصبح من أكثر المفاهيم غموضاً وتعقيداً؟!

ربما في لحظة من لحظات هذا الإدراك المتعرج والمتأرجح طلبت منك وبإلحاح شديد متكرر أن تكف عن الكتابة في كل شئ وأن تتفرغ لكتابة القصة فقط. فأنت تملك الشرطين الأساسين لكتابة القصة الجيدة، الفضول العظيم، وروح الجوابة، وموهبة الصدق، وأظن ياصديقي أن هذا هو الشئ الوحيد أو هي المرة الوحيدة التي سمعت فيها كلامي! سمعته لبعض الوقت أنجزت فيه ماأنجزت من مشروعك القصصي الكبير ثم عادت ريمة لعادتها القديمة!

متى أدركنا معاً أو منفردين أن أبسط أنواع الصدق هو الصدق مع الآخر، وأن أكثرها صعوبة هو الصدق مع النفس، وأن هذا النوع الأخير هو المهر الغالي الذي يتطلبه فن القصة والرواية!

متيٍ تعلمنا التواضع حين أدركنا معا أو منفردين أن المرجو الممكن هو المحافظة على شئ من التوازن ونحن نسير على طريق المعرفة، وعلى طريق الصدق مع النفس، والقدرة على معايشة شئ من القلق حين نكتشف خطأ ما كنا نظنه صوابا وحين نكتشف أن أعظم مصادر الحيرة تكمن في غموض حاجاتنا وتقلبها بين متغيرات الداخل والخارج!

متى أدركنا معاً أو منفردين أن من أجمل الحقائق القليلة الصلبة والفاتنة التي بقيت صامدة من تلك الأيام الخوالي هو القدرة على المحبة، وهي منحة الحياة لمن يحبونها دون شروط أو بشروط تزدهر بها الحياة نفسها!!

والآن ياصديقي أنهي رسالتي هذه اليك بدعوة الى فنجان قهوة لك وحدك بعد أن تنتهي هذه الاحتفالية لنتدبر بعده أمورنا في السبعين عاماً القادمة بإذن الله تعالى وكل سبعين سنة وانت بخير!

المعاطي أبو النجا